الرسالة

(١ تيموثاوس ٤: ٩–١٥)

يا إخوةُ صادقةٌ هي الكلمةُ وجديرةٌ بكلِّ قَبولٍ* فإنَّنا لهذا نتعبُ ونُعيَّرُ لأنَّنا ألقينا رجاءَنا على اللهِ الحيِّ الذي هو مخلِّصُ الناسِ أجمعين ولا سيَّما المؤمنين* فَوَصِّ بهذا وعلِّمْ به* لا يستَهِنْ أحدٌ بفتوَّتِكَ بل كُنْ مثالًا للمؤمنيَن في الكلامِ والتصرُّفِ والمحبَّةِ والإيمانِ والعفاف* واظِبْ على القراءةِ إلى حينِ قدومي وعلى الوعظِ والتعليمِ* ولا تُهمِلِ الموهِبَةَ التي فيك التي أُوتيتَها بنبوَّةٍ بوضعِ أيدي الكهنة* تأمَّل في ذلك وكُن عليهِ عاكِفاً ليكونَ تقدُّمُك ظاهراً في كلِّ شيءٍ.

لقاء الربّ يسوع بزكّا العشّار

وضعت كنيستنا المقدّسة لهذا الأحد فصلًا من بشارة القدّيس لوقا الإنجيليّ يتناول لقاء الربّ يسوع بزكّا العشّار. كان زكّا رئيسًا للعشّارين في مدينة أريحا، وكان ملتزمًا بجمع الضرائب للدولة الرومانيّة، لذلك كان اليهود يعتبرونه خائنًا يعمل لمصلحة المحتلّين. علاوةً على ذلك، لم يكن العشّارون يكتفون بجمع العشور من عامّة الشعب، بل كانوا يأخذون مالًا لأنفسهم، وإن عجز أحدٌ عن تسديد ضرائبه، كانوا يقرضونه مالًا مقابل أخذهم ممتلكاته وأراضيه، الأمر الذي سبّب كراهيةً من اليهود تجاه العشّارين، ومنعهم من دخول المجامع والهيكل، واعتبارهم من اللّصوص والخطأة.

اسم «زكّا» يعني المُزكّى أو البارّ. إذًا، لم يكن زكّا حاملًا صفات اسمه، بل كان رئيسًا لمن يسرقون الشعب باستغلال سلطةٍ منحهم إيّاها أعداء شعبهم. كان غنيًا جدًّا، لأنّ العادة عند الرومان كانت بتعيين أغنياء الشعب لجمع العشور حتّى يتمكّنوا من «إقراض» من لا يستطيع دفع ضريبته كما ذكرنا.

يبدأ هذا المقطع الإنجيليّ بعبور الربّ يسوع من منطقة أريحا، وكان الجمع يتبعه بعدما شفى الأعمى. ربّما دفع هذا الحدث زكّا لطلب رؤية الربّ يسوع، ومعرفة مَن هو هذا الإنسان الذي تتبعه المدينة كلّها، فيما هو، رئيس العشّارين، لا يعرفه. شعر بأنّ كبرياءه قد مُسَّت. لماذا تعطيه الجموع هذه الأهمّيّة ولا أحد يفسح الطريق لرئيس العشّارين حتّى يمرّ؟ حينئذٍ، قرّر أن يعلم مَن هو هذا الانسان العظيم «فتقدّم مسرعًا وصعد إلى جمّيزة لينظره» (لو ١٩: ٤).

لقد واجه زكّا عدّة معوّقات حالت بينه وبين الربّ يسوع. كان إنسانًا خاطئًا، وكانت خطيئته توازي خطيئة الزنى في نظر اليهود، لذلك كان الربّ يسوع يقول للفرّيسيّين في مواضع كثيرة إنّ «العشّارين والزواني» سيسبقونهم إلى ملكوت

العدد ٢٠٢٠/٤

الأحد ٢٦ كانون الثاني

تذكار أبينا البار

كسينوفون ورفقته

اللحن السابع

إنجيل السَحَر العاشر

السموات. أيضًا، كان قِصَر قامته مانعًا له من أن يرى المخلّص، وكان مركزه الإجتماعيّ كرئيس ليتأثّر بتسلّقه شجرة وقيامه بأعمال لا يجوز أن يقوم بها مَنْ في مقامه. لكنّ شوق زكّا لمقابلة يسوع المسيح كان أقوى من كلّ هذه المعوّقات. لذا، قال لوقا الإنجيليّ إنّه أسرع وتسلّق جمّيزة؛ لقد حدّد الرسول لوقا نوع الشجرة التي تسلّقها زكّا، لم يقل «تسلّق إحدى الأشجار»، بل قال «صعد إلى جمّيزة»، وذلك يعود إلى أنّ ثمر الجمّيز كان من أرخص الثمار الموجودة، لدرجة ألّا قيمة فعليّة له. أراد الإنجيليّ تصوير زكّا متعاليًا عن كلّ الأمور الزمنيّة التافهة حتّى يصل إلى معرفة الربّ يسوع. كأنّنا به يُرينا فعلًا ما نحن نعنيه بقولنا «لنطرح عنّا كلّ اهتمام دنيويّ كوننا مزمعين أن نستقبل ملك الكلّ».

عندما رأى الربّ يسوع زكّا فوق الشجرة قال له: «أسرع وانزل». لم يتردّد زكّا في قبول دعوة الربّ يسوع، بل أسرع ونزل من دون تفكير، لأنّ هذه الفرصة تأتي مرّةً واحدة، ولن يعود الربّ يسوع بعد ذلك إلى أريحا. حين رأى زكّا أنّ الربّ قَبِلَه كما هو، ولم يأبه لتذمّر اليهود من كونه رجلًا خاطئًا، حصلت المعجزة وتحوّل زكّا من خاطئ إلى «مُزكّى».

قال زكّا للربّ يسوع: «هاءنذا يا ربّ أعطي المساكين نصف أموالي، وإن غبنت أحدًا في شيء أردّ أربعة أضعاف» (١٩: ٨). «دفع أربعة أضعاف» ما سُرق، في الشريعة اليهوديّة، كان يُعتبر من أقسى عقوبات السرقة التي يفرضها القانون على لصّ. لقد فرض زكّا هذه العقوبة القاسية على نفسه لأنّه تاب توبةً عظيمةً، واعترف بذلك أنّه كان خاطئًا. لم يكتفِ زكّا بهذا التدبير بل قال إنّه سيُعطي المساكين نصف أمواله، بينما كان اليهود يتصدّقون على المساكين بعِشر معيشتهم. إنّ برّه زاد على برّ اليهود المتديّنين، لذلك قال له الربّ يسوع: «اليوم قد حصل الخلاص لهذا البيت لأنّه هو أيضًا ابن إبراهيم» (١٩: ٩).

لم يمرّ المسيح من هذا الطريق، ولم ينظر إلى الجمّيزة مصادفةً، بل كان يعرف أنّ في هذا المكان خروفًا ضالًّا. لذلك، ترك الخراف الباقين وتوجّه نحوه. لقاء زكّا العشّار بالربّ يسوع فتح باب الرجاء والأمل لكلّ خاطئ. هذا اللّقاء يقول لنا إنّ الخاطئ، الذي يُقبِل بشوقٍ وتوبة إلى المسيح، يصير مقبولًا ويعود مبرّرًا. صار زكّا هنا تطبيقًا حيًّا لمثل الفرّيسيّ والعشّار، فصار مقبولًا ونال الخلاص وأصبح مثالًا لنا لكي نتعالى فوق كلّ اهتماماتنا الأرضيّة ونتخطّى كلّ معوّقاتنا، فنُقبل إلى معرفة الربّ يسوع، ونحصل على الخلاص.

حدود الكنيسة

تعيّد كنيستنا المقدّسة في الثلاثين من شهر كانون الثاني للقدّيسين المعروفين بـ«الأقمار الثلاثة»، أي القدّيسين باسيليوس الكبير (+٣٧٩) وغريغوريوس اللاهوتيّ (+٣٩١) ويوحنّا الذهبيّ الفم (+٤٠٧).

زمن أولئك القدّيسين الثلاثة كان مليئًا بالتحدّيات، إن من الناحية الإيمانيّة والهرطقات التي حاربت استقامة الرأي، أو من ناحية التحديات اللاهوتيّة والتشويشات التي أصابت هذه التحديات بسبب اختلاط

الإنجيل

(لوقا ١٩: ١–١٠)

في ذلك الزمان فيما يسوعُ مجتازٌ في أريحا إذا برجُلٍ اسمُه زكّا كان رئيساً على العَشّارين وكان غنيًّا* وكان يلتَمِسُ أن يرى يسوعَ مَن هو فلم يكن يستطيعُ من الجمع لأنّه كان قصيرَ القامة* فتقدَّم مسرعاً وصعِدَ إلى جمَّيزةٍ ليَنْظُرَهُ لأنَّه كان مُزمعاً أن يجتازَ بها* فلمَّا انتهى يسوعُ إلى الموضع رفع طَرْفَهُ فرآهُ فقال لهُ يا زكّا أسرِعِ انزِلْ فاليومَ ينبغي لي أن أمكُثَ في بيتك* فأسرعَ ونزَلَ وقَبِلَهُ فرِحاً* فلمَّا رأى الجميعُ ذلك تذمَّروا قائلين إنَّهُ دخل ليحُلَّ عند رجلٍ خاطئ* فوقف زكّا وقال ليسوعَ هاءَنذا يا ربُّ أُعطي المساكينَ نِصْفَ أموالي. وإن كنتُ قد غَبَنْتُ أحداً في شيءٍ أَرُدُّ أربعةَ أضعافٍ* فقال لهُ يسوعُ اليومَ قد حصلَ الخلاصُ لهذا البيتِ لأنَّه هو أيضاً ابنُ إبرهيم*

لأنَّ ابنَ البشر إنَّما أتى لِيطلُبَ ويخلِّصَ ما قد هلك.

تأمل

«لا يستهن أحد بفتوَّتِك بل كُن مِثالاً للمؤمنين في الكلامِ والتصرُّف والمحبَّةِ والإيمانِ والعفاف».

يتلقّن الأولاد أوّلاً التعرّف على الحروف، ثمّ يتمرّنون على تصنيف الحروف التي تُشكِّل خصوصًا عن تلك التي لا تُشكِّل. بعدها يشرعون على نحوٍ منهجيٍّ في استخدام هذه الحروف عبر القراءة. هكذا تمامًا فلنفعل نحن أيضًا. لندرِّج الفضيلة، ولنتعلَّم أولاً ألاّ نحلف وألاّ نتكلّم بالسوء. بعدها، وإذ نتابع حتى المستوى التالي، فلنتعلّم ألاّ نحسد، ألّا نكون شهوانيين، ألّا نكون شرهين، ألّا نكون سكّيرين، ولا ذوي عنف، ولا كسالى، لكي نستطيع من هنا التخطّي ثانيةً نحو شؤون الروح وممارسة العفّة، وإهمال البطن، ونحو الاعتدال والاستقامة. إذ يمكننا بذلك التسامي في التألّق، واللطف وندامة الذهن، فلنجمع هذه الخصال أحدها مع الآخر، ولنُسربل المفاهيم في عقول المؤمنين، أو من ناحية العمل الرعائيّ وتلبية حاجات الشعب، إضافةً إلى تأنيب مسؤولي الشعب (الأباطرة والملوك) آنذاك بسبب جحودهم الإيمان ومعاملة عامّة الشعب بطرقٍ لا إنسانيّة. لم يحصل كلّ هذا «بكبسة زرّ»، إنّما احتاج وقتًا طويلًا، وجرأةً كبيرة، ومجامع مسكونيّة، وكتاباتٍ لا تحصى، وعظاتٍ لا تحمل مواربةً ولا محاباةً للوجوه. لم يقف عمل الأقمار الثلاثة عند حدود باب الهيكل في الكنيسة، لكنّهم أحاطوا بشعبهم ورعيّتهم من جميع جوانب حياتهم، حتّى إنّ منهم مَن أوقف الإمبراطور عند الباب، ومنعه من دخول الكنيسة، لأنّه إنسان خاطئ ولا يستحقّ الدخول ما لم يطهِّر ذاته بالتوبة والرجوع إلى الربّ.

هذا العمل لم يقم به قدّيسونا الثلاثة فقط، بل جميع رؤساء الآباء والآباء والأنبياء والشهداء والمعترفين والنسّاك وسواهم، الذين لم يرضوا بأن يُهانَ البشر من شخص يستعبدهم، في حين أنّ إلههم الذي خلقهم منحهم الحريّة التامّة. لقد ألقى القدّيس باسيليوس الكبير عظةً مدح فيها الأربعين شهيدًا جاء فيها ما قاله الشهداء للملك الذي أراد ثنيهم عن عبادة الله واستمالتهم إلى المجد الأرضيّ: «لقد كان جواب الشهداءِ هكذا: لِمَ تروم أن تخدعنا يا محارب الله وتطلب أن تبعدنا من إلهه حيّ وتجعلنا في خدمة شياطين مهلكين، وتقدّم في قولك ما ذكرته من الخيرات. أي شيءٍ تعطينا يكون معادلًا لِما تريد أن تأخذهُ منّا. فإنّني أنا واحد من هؤلاءِ، لست أقبل كرامةً هي للهوان والدةٌ. ألعلَّك تعطي مالًا؟ إلّا أنّه لا يكون باقيًا؛ وتبذل شرفًا زاهرًا؟ إلّا أنّهُ يكون إلى الزوال عن قريب صائرًا؛ أتجعلني عند الملك معروفًا؟ إلّا أنّك تصيّرني من الملك الصادق بعيدًا. إنّك لو بذلت العالم كلّه لكان عندنا حقيرًا... لقد وُلِهتُ بحبِّ مجدٍ واحدٍ، هو الذي أجدهُ في ملكِ السموات. إنّني لشديد التباهي، لكن بما في العلوّ من الكرامات، وإنّني أحذر عقوبةً واحدةً، هي عقوبة جهنّم، تلك التي نارها محرقة، أمّا النار التي تهوّلون أنتم بها فهي شريكة لي في العبوديّة، وربّما خَجِلَت إذا رأتْ من استهان بالأصنام... الغاية في السوء أنّكم قدَّمتم لنا هذه العقوبات المفزعة، وليست لكم حجّة علينا سوى حسن عبادتنا، غير أنّكم ستجدون منّا رجالًا لا يعتريهم جُبنٌ ولا حبُّ الحياة ولا تذهلهم كثرة الأموال، بل يستصغرونها في جانب حبّ الله. فها نحن قومٌ قد استعدَّينا للدوران على البَكَر (دولاب حديديّ)، وللكيّ وللعصر، والشدّ إلى الأوتاد، والحريق بالنار، والصبر على كلّ صنفٍ من أصناف العذاب... فلمّا سمع البربريّ المتجبّر هذا الكلام لم يصبر على دالّة هؤلاءِ الرجال بل احتدم غيظًا وفكّر في حيلةٍ طويلة يجدها، يريد بها أن يبلغ مرادهُ منهم في مرارة موتهم».

نلاحظ دائمًا أنّ رجال الله، لا يهمّهم سوى خلاص النفوس، وهم لذلك يجابهون كلّ مَن تسوّل له نفسه الوقوف في سبيل تحقيق المؤمن لهذا الهدف. لذا، لا حدود للكنيسة، ولا لمعلّميها، في الاستبسال بالدفاع أمام أيّ خطر يحيق بالرعيّة. الحدود الوحيدة هي حدود الإيمان. نلاحظ أيضًا أنّ الكنيسة تواجَه دائمًا ممَّن لا

يعجبه كلامُها، المنبثق من تعاليم الكتاب المقدَّس، لهذا تلقى على الدوام ردودًا، مثل ردّ الملك على كلام الأربعين شهيدًا، مليئةً غيظًا، ولا يشفيها سوى تغييب المتكلّم من الوجود.

أخيرًا، لا بدَّ من تذكير جميع المتهجّمين على الكنيسة، الذين يرسمون لها حدودًا لا تتخطّى عتبة الهيكل، بأنّ الكنيسة لا حدود لها، لأنّها جسد المسيح، والمسيح لا حدود له. لكي يتأكّد أولئك من هذا الكلام، ما عليهم سوى قراءة الكتاب المقدَّس بعهديه القديم والجديد، إضافةً إلى قراءة سِيَر القدّيسين، خصوصًا الشهداء منهم، وليزدادوا تأكُّدًا، ما عليهم سوى الاطّلاع على أعمال المجامع المسكونيّة السبعة، وكتابات الآباء القدّيسين، حينئذٍ سيصبح جليًّا لديهم أنّ الكنيسة، منذ تأسيسها على الأرض، نطقت بالحقّ، وهي لن تصمت عن التفوّه بالحقّ، بهدف الوصول إلى الخلاص المنشود.

التواضع هو طريق التوبة

علينا أن نكون متواضعين حتى ولو لم نكن خطأة، فكم بالحري ونحن ممتلئون من سوس الخطيئة! قد يساعدنا هذا الأمر على التواضع أكثر. لا يصعب على الإنسان المتواضع الاعتراف بأنّه خاطئ وكلا شيء أمام الله. عندما تتّخذ هذا الموقف، تجلب عليك نعمة الله.

الخطيئة، التي هي عادةً كارثة في حياتك، تصبح خيرًا لك. فتأتي النّعمة إلى قلبك وتشعر، ليس فقط بأنّك إنسان صالح، بل أيضًا بأنّ الله احتضنك وجعل منك إلهًا بالنّعمة. هكذا يسكن المسيح في قلبك إذا بقيتَ في حالة التواضع واعترفت بخطيئتك تائبًا عنها.

لذلك، يا إخوتي، علينا أن نحيا واقعنا كخطأة مدركين جيّدًا أنّ سوس الخطيئة كامنٌ في داخلنا ونحن في خطر الضلال. يساعدنا هذا الأمر على البقاء متواضعين فنتوب، مسرعين نحو المسيح المخلِّص، شاعرين بمحبّته المخلِّصة. هكذا نستطيع أن نخلص على الرّغم من أنّنا خطأة. هذا هو الخلاص. يا إخوتي، هلمَّ نسمع الكلمة بشكل صحيح، ونشعر بما يقوله الله لنا، ونقف بخوفٍ أمامه معترفين وقائلين: «يا إلهي! كيف أفهم هذه الحقيقة! كم أنا على خطأ! كم أنّي قاسي القلب وأتهرّب حتى لا أحياها...». دعونا نعيش هذه اللحظة سريًّا في داخلنا، ونرجو السيّد أن يفتح أذهاننا ويرسل روحه إلى قلوبنا، لأنّنا لن نفهم إذا لم يأتِ هو لإنارتنا، وإذا لم يمسَّنا فإنّ قلوبنا لن تُنخس حتى نشعر بالخشوع والتوبة الحقيقيّة.

من كتاب «أين أنت يا آدم»

للأرشمندريت سيميون كرايوبولس

للإطلاع على أخبار الأبرشية:

www.facebook.com/metbei

أو

www.quartos.org.lb

بها نفوسنا. أيضًا فلنزاول هذه كلّها في المنزل، مع أصدقائنا، مع نسائنا، مع أولادنا. أمّا الآن، فلنبدأ بأوّل الأمور وأسهلها، بعدم الحلف مثلًا. لنتمرّس على هذا الحرف باستمرار في المنزل، لا سيّما أنّ ثمّة أمورًا كثيرة في المنزل تعيق ممارستنا هذه في الواقع، فحينًا زوجٌ مزعج، وطورًا ولدٌ صعب المراس متمرّد، الأمر الذي يحفّزنا على الحلف... لنَقُمْ بهذا الأمر عينه في ما يتعلَّق بالأهواء الأخرى أيضًا، فندرّب أنفسنا ضدّها في المنزل... ليدعُ كلّ منّا زوجته، عند عودته إلى المنزل، وليُفسّر هذه الأمور طالبًا المساعدة. وعلى الرغم من إخفاقك مرّة، مرّتين، أو مرارًا في تدرّبك، لا تيأس، بل قم مجددًا وصارع. لا تستسلم إلى أن تحيط رأسك بإكليل الغلبة المجيد، الغلبة على الشرير، بعد أن تكون قد ادّخرت ثروة الفضيلة، فوقُ، في خزنةٍ منيعة للحياة الآتية.

القديس يوحنا الذهبي